مغردون خارج السرب

نازك سابا يارد

منذ الجاهلية عرف المجتمع العربي مهمشين خرجوا على تقاليد قبائلهم وقيمها، فعُرفوا بالصعاليك. نبذتهم قبائلهم لأنهم أبناء إماء، أو لأنهم سلكوا طرقًا تخالف عادات القبيلة وتقاليدها. كانوا فقراء، وانتشروا في الصحاري ينهبون، ناشرين الرعب. تميزوا بالشجاعة، وأحيانًا وزعوا على الفقراء بعض ما غنموا. وكان بينهم شعراء كبار، أمثال الشنفرى، تأبط شرًّا، عروة بن الورد والسليك بن السلكة، وقد وصفوا حياتهم في شعرهم.

واستمرّ تهميش بعض الفئات في ما بعد الإسلام، همّشوا إما لأسباب سياسية لأنهم كانوا من الشيعة، مثلًا، أو لأسباب متعلقة بشخصيتهم، نظير ابن الرومي الذي لم يحسسن المداراة والتملق حين غلب على الشعر المدح التكسبي. فوصف في شعره فئة من المهمّشين في المجتمع لم يلتفت إليهم غيره، أمثال حمّال أعمى، أحدب، خباز، أو قالي الزلابية.

واليوم أيضًا نجد مهمشين في المجتمع، إما لأسباب سياسية، أو دينية، أو لأنهم يخالفون قيم المجتمع وتقاليده، أو لأنهم لم ينجحوا في تحقيق ما يحترمه المجتمع من مركز ومال وشهرة. وكما في عصورنا القديمة كان للتهميش الحديث نتائج سلبية وإيجابية. وسأركز بحثي هذا على أديبين: الأديب اللبناني **محمد أبي سمرا** والأديب الكردي السوري **سليم بركات.**

ولد **محمد أبي سمرا** عام 1953 في قرية شبعا الجنوبية النائية. ومن ذكريات طفولته في «قريتي البائسة النائية» يتذكر رعبه القديم «من المشوّهين والمقعدين والمعدمين البائسين»[(1)] ولعلّ في ذلك مبالغة طفل حين يستعيد الرجل ذكريات ماضٍ بعيد. ولكن القرى الجنوبية فقيرة إجمالًا، وخلال سنوات طويلة ظلّ سكانها مهمّشين سياسيًّا، اجتماعيًّا واقتصاديًّا، ومعروف كم تؤثر ذكريات الطفولة والصبا وانطباعاتهما في فكر الإنسان البالغ ونفسيته. وعام 1962 انتقل أبي سمرا مع أسرته إلى ضاحية بيروت الجنوبية التي حلّ فيها جنوبيون ينشدون الأمان

(1) محمد أبي سمرا، **بلاد المهانة والخوف**، (بيروت: دار النهار، 2004) ص 204.

من الغارات الإسرائيلية أو يبحثون عن موارد رزق لم تتوفّر لهم في قراهم. وفي المقابلة التي أجريتها معه ذكر أن شخصيات روايتيه الرجل السابق وسكان الصوَر، ومعظمهم من المهمشين اجتماعيًّا، مستوحاة من الناس الذين رآهم، عرفهم، سمعهم، أو عاش في جوارهم. وهو نفسه يقول إنه في جزء وفير من عمله الكتابي اعتمد على تسجيلات شفهية لسير وتجارب وشهادات في مجالات حياتية مختلفة ومتنوّعة[1]. وعن رواية سكان الصور قال لي إنه استوحاها من بناية ذات طبقات خمس بُنيت في الضاحية حيث كان يسكن، وأقام فيها الخليط الذي يصوّره في روايته. فلولا شعور أبي سمرا بقربى مع هؤلاء الأشخاص المهمّشين اجتماعيًّا وسياسيًّا، أو ربما تماهيه معهم، لما كان جميع شخصيات رواياته منهم. وما يعزّز ظني هذا قوله في الرجل السابق: «وأنا شخصيًّا، كاتب هذه الشخصية الروائية، كنت مثل صاحب السيرة، أتعرّف على نفسي كما لم أعرفها من قبل، وأغترب عنها كأنني لا أعرفها قط، بل أتعرّف إليها أثناء الكتابة»[2]. فلعله يوحي بذلك أنه أثناء تصويره شخصًا مهمشًا اكتشف كم كان هو أيضًا مهمشًا في الحقيقة من غير أن يعي ذلك.

أما سليم بركات فكان فعلًا من المهمّشين، شأنه في ذلك شأن غيره من الأكراد. ولد عام 1951 في القامشلي في شمالي سوريا، وانتقل سنة 1970 إلى دمشق ليدرس الأدب العربي. إلا أن ما عاناه في سوريا من رقابة على كلامه وكتابته، بل على حركاته[3]، جعله، بعد سنة، يغادر دمشق إلى بيروت حيث أقام حتى عام 1982. عمل في الإعلام الفلسطيني، وليس غريبًا على كردي مهمش أن يتماهى مع المهمّشين الفلسطينيين، كما نشر عددًا من رواياته ودواوينه. وحين هجّره الاجتياح الإسرائيلي عام 1982 ذهب إلى قبرص حيث عمل سكريتيرًا للتحرير في مجلة الكرمل التي كان يرأس تحريرها محمود درويش الذي وصف بركات بأنه «أفضل من كتب باللغة العربية منذ عقدين من الزمان»[4].

بعد ذلك هاجر عام 1999 نهائيًّا إلى السويد لاجئًا سياسيًّا لأنه رأى أن السويد تنظر برأفة أشدّ إلى واقع الكتّاب.

في الجندي الحديدي سجّل بركات ذكريات طفولته، ثم في «هاته عاليًا، هات النفير على آخره» نتابع معه ذكريات صباه. (وقد نشرت الذكريات كلها معًا في كتاب السيرتان). في

(1) حميدان، **كتابة الكتابة**، (بيروت: الراوي، 2020) ص 15.

(2) المرجع نفسه، ص 16.

(3) **http://www.aljazeera.net/NR/exeres/169AFA47-712DE-A**

(4) **http://www.alriyadh.com/2008/05/o8/article340922.hmtl**

سيرته كلها يصف الكاتب بالتفصيل تهميشه المادي والاجتماعي والسياسي، إذ لم يكن للأكراد حتى الحق بهوية. وسأحاول أن أظهر مدى تأثير هذا التهميش في رواياته وأسلوبه ولغته. أما شعره ففي أحد عشر ديوانًا، ليس في هذه المقالة المحدودة مجال لتحليلها.

شخصيات كل من الرجل السابق وسكان الصور مهمشون اجتماعيًّا واقتصاديًّا وبينهم أوجه شبه من جهة، وفوارق في تعاملهم مع هذا التهميش، من جهة أخرى.

أولًا، هم جميعًا من أحياء فقيرة. البطل المضاد في الرجل السابق ولد ونشأ في حي سليم مسعد «الفقير القذر»، على حد قوله، قبل أن يهاجر إلى فرنسا للدراسة. وسكان الصوَر انتقلوا إلى الضاحية الجنوبية من قرى الجنوب، فاحتقرهم سكّان الحي الأصليون لأنهم «لا يفقهون / فن العيش والإقامة في البنايات الجديدة وأصولها». ولذلك يربطون سلال القش والبلاستيك الملوّنة وينزلونها من الشرفات للحصول على أغراضهم من الدكان[1]. وتوضح أحداث الرواية مدى إحساسهم بهذا التهميش وكيف تعاملوا معه. فصاحب الدكان أبو ذيب يشعره عمله في الدكان بأنه وزوجته وأبناءه أدنى مرتبة وشأنًا من سكان بناية شهاب لأن هؤلاء موظفون يقطن كل منهم في شقة من شقق البناية ذات الطبقات الخمس، فيما عاش أبو ذيب وأسرته في غرفة واحدة في أول الأمر. فحسدهم ونقم عليهم واعتبر أن الموظفين لا يستحقون رواتبهم التي يكسبونها من غير جهد، بينما يكدح هو طوال النهار ليؤمن اللقمة له ولأسرته. بذلك حاول أن يعوّض عن شعوره بالتهميش؛ ولكنه، من جهة أخرى، نفّس عن هذا الشعور بالانتقام من زوجته وأولاده الذين عاملهم بقسوة وعنف، لا سيما ابنه الأوسط يوسف.

شعر أبو ذيب بأنه مهمّش بالنسبة للعديد من سكان حيّه، أما الرجل السابق فأحسّ بالغربة والتهميش من قِبل من يكون عادة أقرب الناس إلى المرء: أمه. لأن أمه كانت من أسرة أغنى وأرقى من زوجها، شعرت أن زوجها همّشها بالنسبة لأقاربها، فانصبّ غضبها وعنفها عليه وعلى من أنجبتهم بواسطته، أبنائها. فشعر منذ طفولته بأنه حقير، تافه، بأن أحدًا لا يدري بوجوده، وبأن أحدًا لا يتذكره أو يستعيد وجهه بمجرّد أن يغادر[2]. وحين أرسله والداه إلى المدرسة، على نقيض أترابه في الحي، ازداد شعوره بالتهميش بما أن الاولاد لا يريدون أن يكونوا مختلفين عن أترابهم، حتى لو كان ذلك لصالحهم: «فكان علينا، إخوتي وأنا، أن نطأطئ للتسمية (أي تسميتهم تلامذة مدرسة) رؤوسنا، ونقيم في السرّ بيننا وبين أنفسنا مسافة تبرئنا منها وانفصالنا عنها»[3]. وشعوره هذا يناقض ما أحسّ به مهمش آخر،

(1) أبي سمرا، **سكان الصور** (بيروت: دار النهار، 2003) ص 278.

(2) أبي سمرا، محمد، **الرجل السابق**(بيروت: دار الجديد، 1995) ص 33.

(3) المرجع نفسه، ص 51.

الشاعر والصحافي الكردي السوري حسين بن حمزة. حين كان طفلًا في الحسكة أصرّ والده على أن يتابع دراسته. فظنّه المعلم مسيحيًّا كبقية الأولاد المسيحيين الذين كانوا يتابعون دراستهم، على نقيض الأولاد الأكراد. وكان حسين مسرورًا بذلك[1]. من هنا يبيّن أبي سمرا الاختلاف بين طبائع الناس، وحتى الأطفال، في تعاملهم مع تهميشهم.

وازداد شعور بطل الرجل السابق بالتهميش حين خرج إلى حي أرقى يجهله أهله. إلّا أنه مع ذلك خجل باسمه وثيابه وجسمه[2]. ففيما كان العنف والقسوة نتيجة إحساس أبو ذيب بالتهميش، كانت نتيجته بالنسبة للرجل السابق انطواءه على نفسه، وخجله خجلًا شديدًا شلّه، مثلًا، حين حاول التقرب من الفتيات وأغرم بزميلته أمال[3]. وتفاقم شعوره هذا بالدونية حين انتقل إلى فرنسا. اشترى ملابس على الموضة، وهو يدرك أنه لم يخلق لارتداء ثياب أنيقة، وجلس بين زملائه شاعرًا أنه «أشبه بفأر تحت مجهر ضخم» أو «دودة تسبح في سوائل كرش ضخم»[4]. حاول أحيانًا بالفكاهة والتهريج أن يقنّع إحساسه بالتهميش، ولكن عبثًا. وإذ كانت حياته كلها توقًا مستمرًّا للخروج عمّا جُبل عليه في حيّ سليم مسعد، ومحاولة أن يصبح شبيهًا بالذين يحترمهم، اقتنع بعد تسع وثلاثين سنة بأنه لم يفلح في تغيير شيء من صورته عن نفسه. بل استبطن نظرة الآخرين إليه فيقول: «جعلت أسلك وأعيش بمقتضى نسيانهم لي، حتى صرت غيابًا خالصًا»[5]. فكما لم يشعر الآخرون بوجوده بات هو نفسه لا يشعر بأن له وجودًا. فهل أدق من تصوير الكاتب بعد سنّه هذا لأهمية نظرة الآخرين إلينا، ومدى تأثير هذه النظرة فينا ومدى استبطاننا لها إلى أن تضفي هي نظرتنا إلى أنفسنا؟! وإحساسه بدونيته لم يفارقه حتى مع ابنه من زوجته الفرنسية. فحين كان يخاطبه يرى في عيني الولد ويسمع في صوته «تلك النبرة الفرنسية المتعالية»[6]. وإذ وعى الرجل السابق استحالة أن يخرج من الوضع الذي ولد فيه، وأن يغيّر شخصيته التي كوّنها هذا الوضع، شعر «بوجود نواة أصلية صلبة في مركز شخصيتي، عنها تصدر أفعالي وحركاتي كلها»[7]. وكأني بأبي سمرا يؤكد بلسان

(1) أبي سمرا، محمد، **بلاد المهانة والخوف**، (بيروت: دار النهار، 2004) ص 98.
(2) أبي سمرا، محمد، **الرجل السابق**، ص 90.
(3) المرجع نفسه، ص 55.
(4) المرجع نفسه، ص 14و 88.
(5) المرجع نفسه، ص 99.
(6) المرجع نفسه، ص 12.
(7) المرجع نفسه، ص 42.

بطله أن الإنسان مسيّر، لا بالمعنى الديني، وإنما بالمعنى الاجتماعي إذ كوّنت شخصيته الظروف الاجتماعية/الاقتصادية التي وُلد فيها، فهي التي توجّه سلوكه وبالتالي حياته كلها، مما يذكّرنا بالسلوكية الراديكالية التي قال بها ب.ف. سكينير.

وفي رواية سكان الصوَر تشبه تصرفات أم فاروق المهمشة وانفعالاتها تصرفات الرجل السابق وانفعالاته في أنهما كليهما يخجلان من نفسيهما خجلًا شديدًا. فمن حركات أم فاروق المسلمة نستشف ما يدلّ على خجلها من نفسها وشعورها بالدونية تجاه جاراتها المسيحيات في الحيّ. فحين ذهبت لتبارك لأم جوزيف ببيتها الجديد «وقفت خلف درفة الباب المغلقة، تشدّ أسفل طرف تنورتها، وتنظر إلى قدميها»، وحين دعتها أم جوزيف للدخول جلست على طرف المقعد بعيدًا عن جارتيها في ردهة الجلوس(1). فلا أدلّ على حرجها وخجلها من نفسها من هذه الحركات التي يصفها الكاتب بدقة.

والحديث الطويل الذي دار بين المسلمتين أم فاروق وزوجة أبي ذيب يظهر بوضوح كم أحست المسلمتان بأنهما دون جاراتهما المسيحيات اجتماعيًا، من غير أن يخالط ذلك أي تعصب ديني. والملفت للنظر هنا هو أن المسلمات اللواتي ينتمين إلى أكثرية سكانية في الحيّ كلّه شعرن بتهميش لم تشعر به الأقلية المسيحية في الحي، وواضح أن لإحساسهن بالتهميش أسبابًا اجتماعية. تقول زوجة أبي ذيب: «إن اعتناء النساء المسيحيات في البناية والحي بمظهرهن وثيابهن ورغد حياتهن في بيوتهن... ما يبديهن أكثر جمالًا من النساء المسلمات.» وتضيف أم فاروق أن أصواتهن وكلامهن أيضًا رقيق لطيف، وبيوتهن مرتّبة ولا يخرجن إلا بثياب مكوية، أزواجهن يحترمونهن ولا يخجلون من المشي معهن في الطريق. شبابهم مثل الملايكة لا يرفع أحدهم صوته على أمه. ولا علاقة للدخل المالي بهذا الفرق، فما يدرّ دكان أبي ذيب عليه أكثر بكثير مما يربح سائق السيارة زوج جوزفين نصار. وتهمس زوجة أبي ذيب في أذن رفيقتها: «بس رجالنا أبدنش... مش عم يخلونا... بيخافو»(2). ويترك أبي سمرا للقارئ أن يفكّر في أسباب خوف هؤلاء الرجال المسلمين من مجاراة المسيحيين في تصرفاتهم وأساليب حياتهم: خوفًا من ضياع ما يعتبرونه مظهرًا من مظاهر هويّتهم، من موروثهم التقليدي؟ خوفهم أن ترفض نساؤهم استبدادهم؟ أن يرفضن الخضوع لهم خضوعًا كاملًا، كما ألفوا، لا يعترضن ولا يسائلن؟ وقد بيّنت أحداث الرواية أن هذا ما ميّز تصرفات بعض هؤلاء الرجال في محيطهم الشعبي. فاختلاط هؤلاء القرويات الأصل بأناس من بيئة أخرى جعلهن ينظرن إلى أنفسهن بتلك العيون

(1) أبي سمرا، محمد، **سكان الصور**، ص 19 و 22.
(2) المرجع نفسه، ص 222-224.

الغريبة وبعين الفرق بينهم وبين نمط عيشهن وقيمهن وسوء تنظيم حياتهن اليومية والعلاقة بين الرجال والنساء والأطفال. وفي ذلك يقول أبي سمرا : «أدى الانتقال هذا إلى عملية انسلاخ من بيئتهم الأصلية وانقسام أنفسهم واستدخال الآخر الغريب المغاير في أنفسهم»(1).

وهذا يفضي بنا الفرق بين الرجل السابق الذي أحسّ أنه «دودة»، وجوده كغيابه، وأبي ذيب المهمّش والمحبط مثله. على غرار الرجل السابق انكفأ أبو ذيب على نفسه وتحصّن بالصمت والسخط والتقشّف. ولكنه، على نقيض الرجل السابق، يصرف شعوره بوضاعته عن طريق العنف. مثلًا، يجرّ ابنه أحمد من على السرير ليرميه أرضًا ويضربه بالحزام الجلدي، فتفرّ زوجته وابنته خوف أن ينالهما قسط من الحزام الجلدي(2). ويضرب ابنه يوسف ويرفسه بلا توقف، وحين لا يصدر من الولد أي صوت يغرس أبو ذيب أسنانه في كتف الولد ويبصق على وجهه(3). فالعنف كان وسيلة أبي ذيب للتعويض عن المهانة التي حزّت في نفسه، أن يعيد إليها الكرامة المهانة، بأن ينتقم، لا ممن همّشه، بل ممّن هم أقرب الناس إليه، تمامًا كما فعلت والدة الرجل السابق.

بعنفه وقوّته لا يحاول فقط التعويض عن شعوره بالهوان، بل أيضًا إخفاء هذا الشعور عن نفسه وعن الآخرين إذ كان في دخيلة نفسه مصابًا برهاب، وفي كل لحظة من حياته يحسّ بنفسه وحيدًا، معزولًا، معذبًا(4). ولولا ذلك الشعور لما غضب حين رأى زوجته مع زلفا الخوري أو أم جوزيف، فأحسّ أن زوجته تجاري هؤلاء النساء اللواتي تعتبرهن أرقى منها وأرفع شأنًا لكي تريه أنها تميّز نفسها عن أصله هو وعائلته في الضيعة، وأنها تحاول أن تحمل أبناءها أيضًا على مجاراتها، مما يشعره بأن أقرب الناس إليه يهينه(5).

مهمّش آخر في سكان الصور هو الولد يوسف، ابن أبي ذيب. إلّا أن ردّة فعله على تهميشه اختلفت عن ردة فعل أبيه، وتغيّرت مع تطوّر أحداث الرواية ليمثل نموذجًا مهمّشًا يختلف عن الرجل السابق. كان خجولًا كالرجل السابق، مثلًا، حين ذهب إلى بيت ليزا الخوري خجل وخاف أن يقول لها إنه جاء ليأخذ دروسًا خصوصية مع ابنتها جوزفين، وظلّ واقفًا إلى أن جاءت ابنتها ودعته للجلوس. فمن خلال تصوير الكاتب هذه الحركات نقل إلينا صورة دقيقة عن نفسية المهمشين ومشاعرهم. حتى لغة الناس في الضاحية أشعرت يوسف بأنه غريب

(1) من شهادة قدمها أثناء مشاركته في الدورة 29 لأيام «سولير الأدبية» في سويسرا عام 2010.
(2) **سكان الصور**، ص 105-106.
(3) المرجع نفسه، ص 184.
(4) المرجع نفسه، ص 197.
(5) المرجع نفسه، ص 226.

مهمّش إذ اختلفت الكلمات التي استعملها أهل الحي عن كلمات قريته الجنوبية. فلم يفهم، مثلًا، معنى «باكيت دخان» التي طلبت امرأة أن يحملها إليها من دكان أبيه.

وكما كره الرجل السابق أمه كره يوسف أباه. وليهرب من قسوته وعنفه وإذلاله إياه كان يفرّ من البيت ومن الحي متمنيًا أن يكون ابنًا لأب غير أبيه[1]. وعلى غرار الرجل السابق كان الشعور بالإثم لصيقًا بنفس يوسف، لا يفارقه لحظة. وليس مستغربًا أن يشعر الولد بأن سبب عنف والده المستمر ذنوب يرتكبها ولو أنه لا يعرف ما هي: هل هي التدخين والاستمناء وفراره خفية إلى المدينة الرياضية؟ لذلك كان يتوق إلى التخلص من آثامه، أن يصبح ابنًا صالحًا فيرتاح من عذابه. ولكنه لم يستطع أن يحقق أمانيه[2]. ونظرة الرجل السابق إلى نفسه بعيون الآخرين لاحقت يوسف أيضًا «فتلك البقعة السديمية السوداء... غير مقيمة في نفسه فحسب، بل مثبتة في جسمه وحركاته أيضًا، وتعوق قدرته على الكلام.» فحين يكون برفقة ابني أم جوزيف يتساءل: كيف يريانه؟ ما الذي يكشف لهما مهانته ووضاعته: ثيابه؟ صوته؟ مشيته؟ وجهه؟ عيناه؟[3] لا سيما أن هذين الولدين كانا يصرّان على إحساس يوسف بوضاعته واختلافه عنهما.

ولكن، لا الأم ولا يوسف استسلما استسلامًا سلبيًّا لهذا التهميش نظير استسلام الرجل السابق. وكأننا بالكاتب يؤمن بأن الإنسان ليس مجرد ضحيّة من ضحايا بيئته الاجتماعية/الاقتصادية، مسلوب الإرادة والقدرة على التغيير. فلتتخلص الأم من شعورها بأنها هي وأولادها دون مستوى جيرانها المسيحيين بذلت قصارى جهدها لإقناع زوجها بإرسال أولادها إلى المدرسة الخاصة التي ترسل إليها أم جوزيف أولادها. ثم إقناعه بأن يأخذ يوسف دروسًا خاصة مع جوزفين الخوري كي لا يرسب في الصف. وبعد ذلك ألحّت عليه بالانتقال من الغرفة التي كانوا يقطنونها إلى شقة. هل يريد الكاتب أن يوحي بذلك أن المرأة مغرورة وترى أنها تستحق أكثر مما لديها، مما يحيلنا إلى والدة الرجل السابق وتصرفاتها؟ أم أن المرأة أكثر طموحًا من الرجل إلى تحسين وضعها العائلي حرصًا على سعادة أولادها وتأمين مستقبل أفضل لهم؟ أم لإحساس المرأة بأنها دائمًا مهمّشة في أسرتها ومجتمعها تبحث عمّا يعوّض هذا التهميش؟ ذلك أننا لا نلاحظ أن أبا ذيب أو غيره من الرجال في الرواية اهتمّ بتحسين تعليم أولاده أو مسكنه أو ملابسه، على نقيض النساء. أيًّا كان السبب فواضح أن الكاتب يقدّم لنا نساء قادرات، فاعلات، طموحات إلى تحسين أنفسهن وأوضاع أسرهن.

(1) **سكان الصور**، ص 190.
(2) المرجع نفسه، ص 198-199.
(3) المرجع نفسه، ص 207.

ولكن، على الرغم من كل المحاولات التي بذلتها زوجة أبي ذيب كانت لا تزال تشعر بأن جارتها المسيحية لا تعتبرها مساوية لها، وإلّا «فلماذا لا تزورني أنا، التي لخجلي من نظرتها إلينا حين كنا نسكن في الغرفة المقتطعة من بيتها، استأجرتُ بيتًا جديدًا؟» وهذا ضاعف رغبتها بأن تكون على صورة أم جوزيف، ومثلها في حياتها وجسمها وحركاتها وكلامها ونبرة صوتها وملبسها وأثاث بيتها، وفي علاقتها بزوجها وأولادها[1]. وفي مثابرتها على محو شعورها بهذا الفارق بينها وبين جارتها نوت أن تدعو أم جوزيف لزيارتها في بيتها في الضيعة، لتريها أنها تملك بيتًا جميلًا، ولتعرّفها بجاراتها في الضيعة، فتصبح في عيونهن شبيهة بأم جوزيف، جارتها في المدينة، أو بزوجات موظفين من أقاربها في المدينة. بذلت المرأة كل ما في وسعها لتغيّر نظرة الآخرين إليها، وبالدرجة الأولى نظرتها هي إلى نفسها، فما دامت تعتبر نفسها دون الآخرين ستعتبر أن الآخرين يرونها كذلك. إلّا أنها لم تنجح في التخلص من «هذه النواة» السوداء التي كانت مستأصلة في المهمّشين أمثالها في روايتي أبي سمرا، «فخلف نظرتها هذه إلى نفسها، عاودها خجلها من نفسها»[2].

وبذل ابنها يوسف الجهد الذي بذلته أمه ليتخلّص من وصمة التهميش. كان يكرّر زياراته إلى ولدي أم جوزيف في أيام العطل، ومنهما تعلّم كيف يجلس ويحرّك جسمه. وفي النهاية استبطن حركات أسرة أم جوزيف ومفاهيمهم وقيمهم وتقاليدهم، وأقام مسافة بينه وبين والديه وبقية من كان يعاشر من أبناء الحي. فهؤلاء جميعًا «صاروا خلفه، بل إن الشخص الذي كان هو، وبيت أهله والدكان وأباه وأمه، قد صاروا خلفه منذ صار في مستطاعه أن ينظر، من دون مهابة، إلى نفسه بعيون ابني أم جوزيف»[3]. فالرجل السابق ويوسف استبطنا، في النهاية، نظرة الآخرين إليهما. ولكن فيما استسلم الرجل السابق لنظرة المهانة التي استبطنها، استبطنَ يوسف نظرة الانتقاد والمقارنة بينه وبين الآخرين، وأخذ ينظر إلى نفسه وأسرته من خلال هذه النظرة المنتقدة، متوصلًا إلى التخلص من إحساسه بالمهانة.

ولكن، إلى حين فقط، وفي فترات متقطعة. فوصمته العائلية ظلت حيّة، أصليّة، وخوفه وقلقه بسببها لم يختفيا تمامًا. ينفجر أحيانًا «غضبًا ونقمة وسخطًا في حياته وحياة أهله والدكان» الذي ما زال يربطه بزبائنه إحساسه بأنه مهمّش ذليل. حتى بعد أن كبر ظلّ هذا الإحساس يصطرع في نفسه مع كل الجديد الذي أعجبه وحاول اقتباسه واستبطانه، من أغانٍ

(1) **سكان الصور**، ص 327.

(2) المرجع نفسه، ص 328.

(3) المرجع نفسه، ص 281.

وكتب جميلة، إلى بيت أم جوزيف وصحبة ابنتها، إلى الحلقة التنظيمية الحزبية التي انضمّ إليها فترة. كان هذا كله «يوسع الدنيا في رأي يوسف ومخيّلته، ويشعل شهوته الجامحة إلى الانفصال عن تلك النواة السوداء.» ولكن مجرّد قراءته عبارة «هذا من فضل ربي» على المرآة فوق زجاج البوسطة الأمامي(1)، أيقظ فيه مجددًا تلك الوصمة التي بذل أقصى جهده للتخلص منها، وصمة الوضاعة والتهميش.

وسيلة أخرى نفّس بها الرجال عن إحساسهم بالتهميش كان الجنس. فالمغامرات الجنسية والمضاجعة تشعر الرجل بسلطته، بسيطرته على وضعه، بمكانته، بكل ما أفقده إياه كونه مهمّشًا. فزهير العبد يتسلّق شجرة وينتظر أن تفتح أم جوزيف باب بيتها ليراقب حركاتها، ولا سيما ساقيها البيضاوين السمينتين، ويتذكرهما «فيما هو يستمني في الإسطبل»(2). أما شفيق الحسيني، فكان يقضي سهراته مع البغايا. هذا في الواقع، أما في الخيال، فكان يتخيّل أن زلفا الخوري مغرمة به وأنها اتفقت معه على الزواج والسفر إلى البرازيل. عاش شفيق في عالم خياله المضطرب وأمانيه المحبطة وهواجسه الجنسية، إلى أن فقد عقله(3). ويلفت نظرنا أن هواجسهم الجنسية كانت تتركز على المسيحيات. ألأنهن كغريبات، مختلفات، يثرن هواماتهم الجنسية؟ أم لأنهم يعوّضون بذلك عن شعورهم بالدونية تجاههن؟ أم حرصًا منهم على «عرض» من هن مسلمات مثلهم؟ أم لهذه الأسباب كلها معًا؟

وعليه تطالعنا في رواية سكان الصوَر شخصيات مهمشة سلبية وأخرى جاهد بعضها، ولو عبثًا، للتخلص من وضعها. وفي التعليق على روايته هذه يقول مؤلفها إنه كتب «ما لا يقوى البشر على تغييره وتبديله في حياتهم وأجسامهم وأنفسهم طوال أعمارهم القصيرة، رغم قدرتهم على الانتقال من زمن اجتماعي وثقافي إلى آخر، من بيئة ولغة إلى بيئة ولغة أخريين.» ويضيف: «أو هي رواية كيف يعي شخص ما تكوّنه الذي يتحكّم بمصيره»(4)، كما وعى يوسف ووالدته وأم فاروق العبد في هذه الرواية، أو الرجل السابق في روايته الأخرى.

أما في كتب سليم بركات فنجد أنفسنا في مناخ مختلف كل الاختلاف، إذ كان هو نفسه مهمشًا، شأن غيره من الأكراد الذين يصف حسين بن حمزة، الشاعر والصحافي الكردي

(1) **سكان الصور**، ص 247، 248.
(2) المرجع نفسه، ص 10.
(3) المرجع نفسه، ص 161-162، 164-166.
(4) حميدان، إيمان (إعداد)، **كتابة الكتابة**، نصوص في الإبداع، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994) ص 18، 19.

السوري الآخر والمقيم في لبنان، طفولته وطفولة غيره من الأكراد في الحسكة[1]. لذلك يقول أحد شخصيات بركات حين سئل لمَ يكتب أشعارًا حزينة: «وُلدتُ وأمي تبكي... قلبي مطحون. عظامي مطحونة»[2]. فلخّص بهذه الجملة مأساة قومه.

وهنا نتساءل عن سبب كتابة بركات باللغة العربية، بلغة فاتنة، جزلة بل صعبة عجز كثيرون من العرب إتقان مثلها. هل شكّلت لغته وجهًا آخر من وجوه تهميشه؟ في مقابلة أجرتها معه فضائية الجزيرة يبيّن أنه لم يكتب بالكردية لأنه لم يتقنها كغيره من أقرانه، إلّا أن المهم بالنسبة له أن يعبّر عن إحساسه، ولا يهمّه بأية لغة. ثم إنه ليس غريبًا عن اللغة العربية، فهي لغة الدين والفقه والشريعة. ووجدها لغة غنية جدًّا استطاع أن يعبر بها عن خصوصيته ككردي أكثر حتى من اللغة الكردية. وخلص إلى أن اللغة العربية «كانت من الشساعة ومن السعة ومن الثراء إلى درجة أستطيع أن أعبر بها عن كرديتي... حوّلت اللغة العربية معي إلى هوية كردية»[3]. وفي مقابلة أخرى يبيّن كم جاهد ليتقن لغة لم تكن لغته الأصلية. وإذ أظهر البعض صعوبة لغته، أوضح أنها لم تكن كذلك في رواياته، وإنما في الشعر، ذلك أن الشعر، في رأيه، «محيّر» ومن هنا تأتي لغته صعبة، غامضة[4]. وربما كان تفتيشه عن الألفاظ الصعبة، مثل «عتلات»، «الجُرف»، «البشروش» وغيرها نوعًا من التحدي تعويضًا عن تهميشه. ونستطيع أن نضيف إلى ما قاله هو عن كتابته بالعربية، لعلّها خفّفت من إحساسه بأنه مهمّش إذ بات، بواسطتها، جزءًا من كل.

ذلك أن بركات بيّن في سيرة طفولته أنه فتح عينيه على كون الأكراد مهمشين. من مظاهر هذا التهميش عنصرية الموظفين الذين كانت الحكومة تنتدبهم على أمور الشمال. يتكبرون على الأكراد، وفي المدارس يحابي المعلمون والمدراء أولاد هؤلاء الموظفين فيما يتجنبون أولاد الأكراد. ومساعد مسؤول عن السجن المدني لم يجرؤ على الإفصاح عن أن في عروقه دمًا كرديًّا لكي لا يُحتقر كما يُحتقرون[5]. وفي إظهار الظلم اللاحق بالأكراد يقول بركات، بمبالغة فكهة، إن الحكومة أكلت الشاحنات والقمح والمطر والرياح والبروق. أما المعلمون، «فيغالون في تحقير التلامذة وضربهم... أنت طفل... إنهم يكرهونك سلفًا

(1) أبي سمرا، محمد، **بلاد المهانة والخوف** (بيروت: دار النهار، 2004) ص 97-99، 102، 114-116.

(2) بركات، سليم، **الفلكيون في ثلاثاء الموت**، كبد ميلاؤس (بيروت: دار النهار، 1997) ص 125.

(3) **http://www.aljazeera.net/NR/exeres/169AFA47-712D-462E-A**

(4) **http://www.alriyagh.com/2208/05/o8/article3400922.html**

(5) بركات، سليم، **السيرتان**، (بيروت: دار الديد، 1998) ص 227.

ولا تدري لماذا. المعلم يكرهك، ويكرهك موظف الدولة والشرطي»[1]. ففتح عينيه، كأمثاله من الأطفال، على الحقد والكراهية والاضطهاد إذ حُرّم عليهم حتى التكلم بلغتهم.

ولم تكن مدارس الأكراد وحدها دون مستوى مدارس الأولاد السوريين الآخرين، وإنما المستشفيات التي كانت تعالج الأكراد لم يكن لها من المستشفى إلّا اسمه. ينتقل المريض من جناح إلى جناح وتزداد حظوة بعضهم عند الممرضات أو تقل، وليس من الصعب التكهن بسبب ذلك. تبدّل الشراشف يوميًّا أو تبقى شهرًا؛ وتمرح الكلاب في المستشفى؛ ويقدّم المرضى طاسات بولهم فتؤخذ وتختلط الطاسات؛ ويدخل المرضى المستشفى اعتباطيًّا أو لا يدخلون؛ أو يدّعي الطبيب أن أحد المرضى مات فيدخله غرفة التشريح مع أنه لا يزال حيًّا[2]. هذا، إذا وُجد طبيب، إذ لا يهتم بالمرضى عادة سوى بعض الممرضين، وحتى هؤلاء لا يتكلمون الكردية ليستطيع المرضى التفاهم معهم، كما بيّن الكاتب في إحدى رواياته[3]. وما دام الاولاد قد مُنعوا من تكلم لغتهم الكرديّة، لم يتعلموا قراءتها وكتابتها[4]. وزاد الطين بلّة ما بيّنه بركات في رواية أخرى من أن لكل من قبائل الأكراد لغتهم، فلا يفهمون على بعضهم بعضًا[5].

وتظهر روايات بركات أن ما يعانيه الأكراد من استبداد وظلم واحتقار ليس جديدًا. فأحداث أنقاض الأزل الثاني ترينا كيف كان الأكراد ضحية الصراع بين الروس والفرس. ففي أربعينيات القرن العشرين منح الروس الأكراد جمهورية مستقلة، «مهاباد»، مما أثار حفيظة الفرس، فقتلوا رئيس جمهوريتها القاضي محمدًا وتتبعوا أنصاره حتى تمكّنوا من قتلهم جميعًا، فلم تعش هذه الجمهورية سوى أربعمئة يوم[6]. ولان الفرس آمنوا «بأن الأكراد من نسل الجن» كان قتلهم حلالًا[7]. ولكنّ علاقة الأكراد بالأتراك لم تكن أفضل. حين استولى أتاتورك على الحكم نقل بعض الأكراد من بلادهم إلى المدن الكبيرة ليأمن

(1) بركات، سليم، **السيرتان**، ص 34.
(2) المرجع نفسه، ص 144-145، 148-151.
(3) بركات، **فقهاء الظلام**، (نيقوسيا، قبرص: منشورات بيسان، 1985) ص 87-88.
(4) بركات، **الفلكيوني في ثلاثاء الموت**: عبور البشروش (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994) ص 214.
(5) بركات، **الفلكيون في ثلاثاء الموت**: الكون (بيروت: دار الجديد، 1996) ص 47-48.
(6) بركات، **أنقاض الأزل الثاني** (بيروت: دار النهار، 1999) ص 70، 104، 180-184، 216.
(7) المرجع نفسه، 113.

انقلاباتهم عليه في الحدود الجنوبية الشرقية، بوّابة الكرد إلى الكرّ والفرّ إلى كردستان وفارس والعراق. وظلّ الدرك التركي يلاحق الأكراد، فلا يسمح لهم بالانتقال من بلدة إلى أخرى من غير إذن خاص. إن أحداث روايته أنقاض الأزل الثاني تصف مفصلًا مصير الأكراد البائس في تلك الحقبة[1].

ولم تنتهِ معاناتهم من الاضطهاد والظلم خلال الانتداب الفرنسي لسوريا. فسعيد آغا الدقوري، أحد أبطال معسكرات الأبد جاهد ضد الفرنسيين وأعلن قرية «عامودا» معقلًا مستقلًّا، إلّا أن طائرات الفرنسيين أغارت عليه وعلى رجاله، ففرّ الآغا مع بعض من نجا من رجاله إلى أدغال تركيا. ولكن، بعد ذلك قصف الفرنسيون قرى كردية أخرى لأن سكانها دعموا سعيد آغا الدقوري، واعتقلوا بعض هؤلاء السكان، ومنهم حسين مصطفى آغا الذي اقتادوه إلى دير الزور[2]، فأجج اعتقاله القرى الكردية شهورًا. من ذلك كله نرى إلى أي مدى صوّرت روايات بركات التهميش والمعاناة اللذين عاشهما شعبه.

وليست أحداث رواياته مستوحاة من تاريخ شعبه وحده، وإنما من سيرته هو أيضًا. مثلًا، بطل «الفلكيون» في ثلاثاء الموت: عبور البشروش شاب كردي أنهى دراسته في موسكو ولم يرد العودة إلى وطنه البائس فانتقل إلى السويد ثم اختار قبرص هربًا من الصقيع. (أما الكاتب، فأقام في قبرص أولًا، ثم انتقل إلى السويد). وفي قبرص لم ينسَ بؤس وطنه، فاشترك في المظاهرات احتجاجًا على ما يلحق بالأكراد في تركيا[3]. وأكد أن خوف السلطات الظالمة من غضب الشعب جعلها تنقلهم من مواطنهم وتوزّعهم في مناطق أخرى، فنقلت البدو من الصحارى إلى السهول، وسكان السهول إلى الصحارى، وخلخلت أحياء المدن المتجانسة وبثّت جواسيسها بين الناس «حتى يغدو الرقيب رقيبًا على الرقيب[4]، مما دفع شخصية أخرى في الرواية إلى التساؤل: كيف تسنّى أن لا ينقرض الأكراد بين «اضطهاد طهران وبغداد وأنقرة لولا أعجوبة من أعاجيب الكون؟»[5].

وبطل رواية «الفلكيون» في ثلاثاء الموت: كبد ميلاؤس سوري كردي كالكاتب، ولا ريب في أن بركات استوحى خبرته الشخصية حين أكد في الرواية أن رجال الأمن يدقّقون في جوازات سفر القادمين إلى قبرص من الشرق أكثر من تدقيقهم في غيرها لأن «التجاوزات

(1) بركات، **أنقاض الأزل الثاني**، ص 149-150، 158-159، 162-163.

(2) بركات، **معسكرات الأبد**، (بيروت: دار التنوير، 1993) ص 103-111، 117-119، 155.

(3) بركات، **عبور البشروش**، ص 14.

(4) المرجع نفسه، ص 179.

(5) المرجع نفسه، ص 215.

والخروج على القانون والمذعورين والتائهين لا يأتون إلّا من هناك»[1] . ومع أن جاره الكردي يعيش الآن في قبرص، أي بلد ديمقراطي، فهو يرفض البوح بأي ميل سياسي لأنه «من الشعوب المفطومة على الصمت دفعًا لنوائب البطش»[2]، فالحذر والخوف لا يفارقهم. لذلك غادر بركات سوريا إلى بيروت، ويعبّر عن ذلك أحد أبطال عبور البشروش بقوله: «ينام الإنسان يقظان، ينام الشجر يقظان... عين الإنسان على المجهول، والمجهول يقظة العارف. لذلك يبقى كل شيء يقظان في حكمة الكردي هناك.» ولأن الشراب المسكر يفقدهم يقظتهم فهم لا يشربون[3] . فهل يُستغرب بعد ذلك أن يقول أحد أبطال معسكرات الأبد: «الإنسان غضب... ومن دون غضب لا تتأكد المسيرة الصامتة للحقيقة من قناعها الممزّق، دون غضب لا تكون للمكان خاصيته كمكان»[4] . وكأن الكاتب يوحي أن غضب الأكراد ونقمتهم على وضعهم، صامتًا كانت أم مسلحًا، هو الذي حافظ على كيانهم ووجودهم وأكّد «مسيرتهم الصامتة للحقيقة في قناعها الممزق.» وحين يُغتال شاب قبرصي فقط لأنه يساعد الأكراد، يقول بركات: تزعم ولادات الأكراد أنهم «كلهم يولدون غاضبين، عاضّين، من الغضب، حبال سررهم»[5] . فكأن الكردي يعرف منذ ولادته أنه سيكون ضحية.

وفي آخر سيرته الذاتية يبيّن بركات أن هذا الغضب، مع تهميشهم، أدى إلى تمزيق بعضهم بعضًا، إلى تشرذم الأسر، إلى أن ينتقم المعلمون «عبر تلامذتهم، من الماضي، من الحاضر، ومن المستقبل»، وينهب الدركيون القرى ليعوّضوا عن ضآلة مرتباتهم، والبدو يطلقون مواشيهم لترعى في حقول المزارعين وتقضي عليها[6] . وبذلك يرينا النتائج السلبية لغضب المهمّشين إذ يذهب ضحيتها الأبرياء الذين يشفي فيهم الغاضبون غليلهم، فيما يبقى المغضوب عليهم متسلطين، في منأى عن أي ضرر.

ويلاحق التهميش الأكراد حتى بعد أن يغادروا بلادهم كلاجئين غير قانونيين، مثلًا، فيرضون بأي عمل أو أجر[7] . ولكن، على الرغم مما لاقوا في بلدهم من اضطهاد وخوف وحرمان وفقر، يظلّ الحنين إلى الوطن ينخر قلوبهم[8]، كما نراه ينخر قلب الكاتب. فلولا

(1) بركات، **كبد ميلاؤس**، 34.
(2) بركات، **كبد ميلاؤس**، ص 32.
(3) بركات، **عبور البشروش**، ص 52.
(4) بركات، **معسكرات الأبد**، ص 224 53.
(5) بركات، **الفلكيون في ثلاثاء الموت، الكون**، ص 197.
(6) بركات، **السيرتان**، ص 290.
(7) بركات، **كبد ميلاؤس**، ص 122-123.
(8) بركات، **كبد ميلاؤس**، ص 64.

ذلك لما تناولت رواياته كلها مآسي الأكراد، قديمها وحديثها. ولذلك جعل بطل «الفلكيون» في ثلاثاء الموت: الكون يعود في آخر الرواية إلى مسقط رأسه «تاف» بعد أن قضى ثلاث عشرة سنة في قبرص، مع أنه كان ناجحًا في عمله كمترجم، وفي حبه لغانية بلغارية. وكأننا ببركات يعبر عن رغبة مكبوتة في نفسه يعجز، على نقيض بطله، عن تحقيقها.

وفي «السيرتان»، كما في الروايات، يصف بركات مفصلًا كيف انعكس التهميش السياسي على المجتمع الكردي وأخلاقه. نتيجة تهميشهم السياسي كانوا، أولًا، ضحايا استغلال الشرطة لهم، إذ كانت تعدّ محاضر ضبط جاهزة تعاقب بها التجار، ولو كانوا أبرياء؛ وكانوا، فوق ذلك، ضحايا موظفين يرتشون وجباة «يجبون الضرائب على الهواء والظل»[1]، يؤكد ساخرًا. وزاد الطين بلة هجوم الهجانة على البيوت ونهبها، إلى أن انفجر غضب الشعب فأخذوا يغتالونهم[2]. بالإضافة إلى ذلك، أهملت الدولة شؤون الأكراد إهمالًا كاملًا وكأنهم ليسوا بشرًا. يُحشر التلامذة في غرفة واحدة، مقاعدهم صناديق الخضار الفارغة، معلموهم يقضون سنة خدمتهم في هذه «البلدة المختبر» قبل أن يعودوا إلى المدن «لتعليم الأطفال الأنيقين»؛ ويوم يُنظَّم للأولاد عرض فيلم يُحشر خمسمئة طفل في غرفة يغذّيها مولد كهربائي لا يلبث أن ينفجر بعد دقائق، فتحترق القاعة ويحترق الاطفال، ومن لم يحترق خنقه الدخان[3].

بعد أن صوّر بركات هذا المظهر من مظاهر تهميش شعبه بيّن النتائج التي نجمت عنه إذ انفجر المهمشون حاقدين، ناقمين على كل شيء: على المقاهي وقطار المدينة الوحيد، على مطاحن القمح ومصنع الجليد، على المطار والطائرات، يقول: «كرهنا كل شيء لأننا لم نمتلك ـ وسط أحلامنا الغامضة بامتلاك لعبة ما، أو حقيبة جميلة- إلَّا عبثنا الصارخ، فأطلقناه كغيمة مسرعة»[4]. بهذه الجمل المؤثرة تخطى بركات مأساة شعبه المهمش ليعكس ردة فعل كل شعب مقهور، مظلوم، مهمش، لا يجد متنفسًا عن حرمانه وقهره غير تحطيم ما يملكه الغير، ما دام هو لا يملك شيئًا، أي الانتقام ممن لم يُحرم مثله.

ولا يكون الانتقام من الممتلكات وحدها وإنما يتعداه إلى الأشخاص. حتى شيخ أعمى لم ينجُ من قسوة المعاملة. فأحدهم يقول له متهكمًا، ببذاءة: «منذ متى يفرق أعمى مثلك بين بظر أمه وخصية الديك؟»[5] ولم تقتصر القسوة على الكلام، فها هي زوجته تحاول قتله بأن تعقد

(1) بركات، **السيرتان**، ص 132، 258.
(2) المرجع نفسه، ص 74.
(3) المرجع نفسه، ص 244-245.
(4) المرجع نفسه، ص 75.
(5) بركات، **أنقاض الأزل الثاني**، ص 28.

على خصيتيه خيطًا مشمعًا وتشدّه، ولم ينجِه إلّا صراخه الذي سمعه أولاده[1]. إنه انتقام عنيف، بل وحشي، وقد ميّز العنف والقسوة المجتمع بأكمله. فحين اتهم معلم حزبي النساء بأنهن عاهرات، أخرجنه من بيته وهن يرشقنه بأقذع الشتائم، ثم هجمن عليه بأحذيتهن وقباقيبهن يضربنه حتى جحظت عيناه واختفى صوته، وأمسكت إحداهن «خصيتيه، وظلت تعتصرهما حتى خرجت رغوة بيضاء من فمه... ومضى في غيبوبة لم يفق منها»[2].

فهذه القسوة التي شاهدها بركات في طفولته ظهرت في أحداث رواياته. مثلًا، على أثر سوء تفاهم بسيط بين راعيين هجم أحدهما على أكباش الآخر وقتلها بوحشية، فهجم عليه الراعي الموتور ودفعه في بحيرة حتى غرق. أو حين لم يعجب رئيس أحد القبائل ما يدوّنه كاتبا قبيلة معادية أمر بقتلهما وقطع رأسيهما. وحين حضر رؤساء قبائل ثلاث إلى «تاف» لدفن «جواني صال» ووجدوا أن «الشهروري» اليمني كان قد حنّط الجثة، من غير أن يعرف أن ذلك ينافي تقاليدهم، قرّروا دفنه حيًّا وأمه في بيت أغلقوا كل منافذه[3]. وفي رواية أخرى يتذابح إخوة وأمهم، فعُلّقت جماجم القتلى، ثم شُويت جثثهم، وقطع أحدهم أصابع أمه المشوية وصار يلوكها ويبصقها رمادًا[4]. إن مثل هذه المشاهد الدموية الوحشية في الرواية قد تكون من رواسب العنف الذي عاشه الكاتب في ماضيه، نبشها من ذاكرته، أضرم فيها خياله، فطلع علينا بهذا المشهد المروّع. وفي رواية أخرى يقتل ابن «عقدي ساري» غريمه، وخوف أن تثأر منه أسرة القتيل يعود القاتل إلى بيت القتيل ويقتل إخوته الأربعة فضلًا عن جيران حاولوا الفرار[5]. وحين يختلف مقامرون على تقاسم ما ربحوه، كانوا يتطاعنون. ولم يكتفِ أحدهم بطعن زميله طعنة واحدة، بل شقّه من الصدر إلى البطن، ومن الخاصرة إلى الخاصرة، وقد اندلعت أحشاؤه[6]. فإزاء مثل هذه الأحداث يشعر القارئ أن قتل الآخر، ولو بريئًا، كان أمرًا طبيعيًّا، مألوفًا بالنسبة لشعب مهمّش كثيرًا ما قُتل أفراده، هو أيضًا، ولو كانوا أبرياء. ونجد في جواب القائمقام ما يبرّر ما نذهب إليه هنا. فحين شكا إليه شرطيون أن السجناء الأكراد يقتلون بعضهم بعضًا في السجن جاء ردّه بكل بساطة: «أكراد، فليتذابحوا»[7]. فحين يشاهد سليم الطفل هذا كله لا نستغرب أن يتجلى هذا العنف في رواياته.

(1) بركات، **أنقاض الأزل الثاني**، ص 41.

(2) بركات، المصدر السابق، ص 122.

(3) بركات، **الفلكيون في ثلاثاء الموت، الكون**، ص 81-83، 85-96.

(4) بركات، **الفلكيون في ثلاثاء الموت: كبد ميلاؤس**، ص 65، راجع كذلك ص 149-150.

(5) بركات، **فقهاء الظلام**، ص 44-72.

(6) بركات، **السيرتان**، ص 54.

(7) المرجع نفسه، ص 53.

هذه البيئة التي فتح فيها الأطفال عيونهم على العنف والقسوة، ولا يكون في متناول أيديهم «اللعبة أو الحقيبة الجديدة» التي يحلمون بها، على حدّ قول بركات، يستعيضون عنها بالحيوانات، لا ليلعبوا معها وإنما ليفتنّوا في تعذيبها: من الخلد الأعمى، إلى القنافذ، واليرابيع التي يسلخونها بعد أن يكونوا قد نفخوها بصب الماء في أجوافها(1)؛ أو يرشون الكاز على ذنب قطة ويشعلون ذنبها؛ أو يربطون المفرقعات إلى أذيال العجول ويشعلون فتائلها فيجنّ جنونها(2).

ولعلّ العنف والقسوة نتيجة من نتائج الفقر الذي عاناه هؤلاء المهمّشون. فغالبية الأكراد كانوا فقراء. يصف بركات الأعمال الشاقة التي قام بها وأخوه منذ طفولتهما لمساعدة الوالد على كسب الرزق: ينكّبان الأرض، يحملان الأكياس الثقيلة ليضعاها في الشاحنات. يعملان من الفجر إلى النجر. ينسى الولد سليم جوعه ولكنه لا ينسى غضبه، ويشتم من أعماق قلبه «تفو على عمرنا»(3). وحين تجدب الأرض، ويقلّ المحصول، يتديّن المزارعون، ثم يسدّون الدين بدين جديد، وهلمّ جرًّا إلى أن يضطرّ المزارعون إلى بيع أرضهم، وبعد ذلك إلى بيع حلي نسائهم، ثم دجاجاتهم وخرافهم، وبعدها يبيعون أثاث بيوتهم الحقير، «ومن لا يجد الأسرّة، يبيع ظهره كعتّال، ومن لا يقدر على العتالة يتّجه صوب الحدود ليهرّب التبغ والزبيب حتى تقتنصه طلقة دورية من دوريات الحدود»(4).

وحلّ آخر أمام هؤلاء الفقراء كان السرقة. يسرقون كل ما استطاعت أن تصل إليه أيديهم. حتى القبور كانوا ينبشونها ليسرقوا ما كان قد دُفن مع الجثّة سهوًا(5).

فأيّة متعة تبقى لهم في هذه الحياة الفقيرة المحرومة، متعة مجانية لا تكلفهم مالًا؟ الجنس. حتى ليبدو أن الجنس أصبح هاجسهم منذ الطفولة وخلال المراهقة وبعدها حتى آخر سنوات حياتهم. يجمع الصبيان صور العاريات ويتمتّعون بفحصها؛ يتلصصون على الأزواج في بيوتهم وهم يتضاجعون(6)؛ يتحرّشون بالبنات المراهقات ويستدرجونهن للمضاجعة: «ثلاث بنات. كبراهن في الثالثة عشرة. بالرغم من صغرنا كان الأمر

(1) بركات، **السيرتان**، ص 51-53.
(2) بركات، المرجع نفسه، ص 63-64.
(3) بركات، المرجع نفسه، ص 276-284.
(4) بركات، المرجع السابق، ص 126.
(5) بركات،المرجع نفسه، ص 154-155، 176-177، 188-190، 234-235.
(6) بركات، المرجع نفسه، ص 142-144، 155، 161، 171-175، 182-187.

ممتعًا حقًّا. وفي مكنة الواحد منا أن يظفر بالثلاث معًا. يعرّي نصفهن السفلي ويلتصق بهن بالحراك. نصف ساعة، ساعة كاملة. ساعتين»[1]. أو يجلس المريض حين تكتب له الممرضة وصفة الطبيب، فيفتح بنطاله وتضاجعه وهو جالس[2]. ومن ثم تعكس روايات بركات هذا الهاجس بالجنس. ففي إحداها نجد أن الفتاة المعوقة نفسها لا تنجو من تحرشات الرجال الجنسية، بما فيهم فقيه دين[3].

ونتيجة تهميش الأكراد وحرمانهم العلم في مدارس لائقة تفشّى فيهم الجهل والإيمان بالخرافات. رأى بركات في طفولته رجلًا سمّوه «الصوفي» لأنه يرى علامات أشياء لا يراها غيره، مثل «علامات الخلخلة والنفير الذي سيعلو من جهة الغرب فتتراكض القبور، والأودية، والبيوت، والنباتات، صوب ميزان يرفعه ملاك واحد يزن به السموات والأرض كما يزن البقال البصل»[4]. فيؤمن الناس به وبنبوءاته. وهذا أيضًا نجد صداه في روايات الكاتب. مثلًا، في إحداها آمنوا بأن علاج عمى الألوان يكون بأكل أكباد القنافذ الناضجة، فيما يكون علاج المحرور بأن يوضع تحت وسادته خرز من منابع الفرات[5].

وهنا نتساءل: هل لهذا علاقة بكثرة الأحداث الغرائبية التي في روايات بركات كلها؟ ففي «فقهاء الظلام»، مثلًا، يولد «بيكاس» وبعد ساعة يصبح رجلًا يصرّ على الزواج، ومن بعده ابنه «بيكاس الثاني» يصبح كهلًا في غضون نهار واحد. وفي «الفلكيون» في ثلاثاء الموت: عبور البشروش يقيس الطبيب نبض صخور ضخمة وأوراقًا يخطّ عليها المهندسون[6]. وبعد أن يكون البرزاني وعمر حاجو قد ماتا يلتقيان ويتحدّثان[7]. أما في «معسكرات الأبد» فتتجول أشباح ثلاثة موتى في القرية، ترى وتسمع كل ما يجري فيها، إلَّا أن أحدًا لا يراها. فهل أراد بركات أن يرمز بذلك إلى بقاء الأكراد، مهما اضطُهدوا وقُتلوا، فإن ذكراهم تبقى حية في أذهان الأجيال؟ أو أن يوحي بذلك أيضًا أن التهميش لا يكون بالضرورة سلبيًّا؟ أم أن هذه الواقعية السحرية فتنته كما فتنت كتّاب أميركا الجنوبية بصفة خاصة؟ وتعليقًا على هذه

---

(1) بركات، **السيرتان**، ص 223.

(2) بركات، المرجع نفسه، ص 143.

(3) بركات، **فقهاء الظلام**، ص 36-40.

(4) بركات، **السيرتان**، ص 167

(5) بركات، **أنقاض الأزل الثاني**، ص 39-40، 75

(6) بركات **عبور البشروش**، ص 156، 164-173

(7) بركات، المرجع نفسه، ص 222-224

الظاهرة في روايات بركات يقول «ستيفان ماير» إن روايات بركات أقرب ما تكون، من هذه الناحية، إلى «الواقعية السحرية اللاتينية الأميركية»(1).

وهذا يفضي بنا إلى سليم بركات نفسه. واضح من سيرة طفولته وصباه أنه لم يكن أحسن حالًا من غيره من الأكراد المهمّشين. فكيف نجمت عن هذا التهميش نتيجة إيجابية ليصبح كاتبًا وشاعرًا مرموقًا؟ في القسم الأخير من سيرة صباه(2) يرينا إعجابه الشديد بفتاة تركية راقية يراها تعزف على البيانو في حفلة. وفي حلم يقظة يتخيّل أنها فتاته، أنها له، وهو يدرك تمامًا أنه ليس من طبقتها ولا من بيئتها. فهل كانت ذكرى هذه الصبية وما تمثل من رقيّ ثقافي واجتماعي بين الاسباب التي حدت بالشاب إلى التغلّب على ظروفه؟ لم يتابع بركات سيرته الذاتية بعد مرحلة صباه كي نجد الإجابة عن سؤالنا هذا. وليست الإجابة مهمّة، فالمهمّ أن هذا الطفل الكردي المهمش منذ ولادته تمكّن من جعل حياته بنّاءة، قيّمة، إيجابية.

إن الخلاصة التي توصّلت إليها من تحليلي لهذه الكتب كلها أن التهميش، ولو كان مستنكَرًا، قد تنجم عنه إيجابيات، رأيناها في شعر الصعاليك وابن الرومي قديمًا، وإن لم تبرزها روايات محمد أبي سمرا كافيًا، فإنها تجلّت بوضوح في سيرة سليم بركات ونتاجه.

المصادر

أبي سمرا، محمد. الرجل السابق. بيروت: دار الجديد، 1995.

أبي سمرا، محمد. سكان الصور. بيروت: دار النهار، 2003.

أبي سمرا، محمد. بلاد المهانة والخوف. بيروت: دار النهار، 2004.

أبي سمرا، محمد. شهادة قدّمها حين شارك في الدورة 29 لأيام «سولبير الأدبية». سويسرا: 2010.

بركات، سليم. السيرتان: الجندب الحديدي. هاته عاليًا هات النفير على آخره. بيروت: دار الجديد، 1998.

بركات، سليم. فقهاء الظلام. نيقوسيا، قبرص: منشورات بيسان، 1985.

بركات، سليم. أرواح هندسية. بيروت: دار الكلمة للنشر، 1987.

بركات، سليم. معسكرات الأبد. بيروت: دار التنوير، 1993.

(1) **en.wikipedia.org/wiki/Salim_Barakat**

(2) بركات، **السيرتان**، ص 271-274

بركات، سليم. الفلكيون في ثلاثاء الموت: الكون. بيروت: دار النهار، 1996.

بركات، سليم. الفلكيون في ثلاثاء الموت: كبد ميلاؤس. بيروت: دار النهار1997 .

بركات، سليم. أنقاض الأزل الثاني. بيروت: دار النهار، 1999.

المراجع

حميدان، إيمان (إعداد). كتابة الكتابة، نصوص في الإبداع. بيروت: الراوي، 2010 .

مقابلة

مقابلة مع محمد أبي سمرا أجرتها الأديبة نازك سابا يارد يوم الثلاثاء في 5 نيسان، 2011.

المواقع الإلكترونية

http://en.wikipedia.org/wiki/Salim_Barakat

http://www.aljazeera.net./NR/exeres/169AFA47-712DE-A

http://www.alriyadh.com/2008/05/08/article340922.hmtl